نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس الرابع والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. غزوة الغابة.
2. غزوة خيبر.
3. قدوم مهاجري الحبشة وأبي هريرة وأبان بن سعيد.
4. قسمة خيبر.
5. شاة مسمومة.
6. استسلام أهل فَدَك.
7. زواجه - صلى الله عليه وسلم - وبناؤه بصفية
8. وادي القُرَى.
9. غزوة ذات الرقاع.

جاء الإسلام رحمة للعالمين وليخرجهم من عبادة الأوثان، ومن عبوديّة العقل للجسد وغرائزه لرقيّ الجسد إلى الروح وسمائها، فتحقّق في الإسلام السموّ الذي كانت تفتقدهُ البشريّة في عصور الضلال والانحراف والتيه الذي مرّت به، ولم يعرف التاريخ رسالةً أشمل وأعظم من رسالة الإسلام، وهي الرسالة الأبديّة التي أنزلها الله مع كلّ أنبيائه ورسله، فكانوا يدعونَ الناس دوماً إلى خلع ما يعتقدونهُ من هيمنة الحجر على البشر ومن ألوهيّة الصنم والتمر والخشب، إلى فلك التوحيد والإيمان بالخالق الذي لا حدود لقدرته ولا تناهي لعظمته جلّ جلاله. كما لم يعرف التاريخ رسالةً أعظم من الإسلام، فإنَّ التاريخ لم يعرف فاتحاً ولا قائداً أعظم من رسول الله مُحمّد عليه الصلاة والسلام، فهوَ النبيّ الذي ختمَ الله بهِ الأنبياء، وهوَ الذي أخرجنا الله بهِ من ظُلمات الدنيا إلى نور الدنيا والآخرة، ولكونه النبيّ العظيم والرسول القائد حقّ علينا أن ندرس سيرته وأن نعرف عن حياته وعن شخصيّته وعن أبرز ملامح الفترة الزمنيّة التي عاشها، ولا يكون هذا إلّا بدراسة السيرة النبويّة ومعرفة الحياة العامّة والخاصّة للنبيّ الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

بين المسلمين وبقية الأطراف:

كان عهد الحديبية ميثاقاً ينص على وضع الحرب عشر سنين، وبفضل هذا العهد أمن رسول الله - ﷺ - من أكبر عدو له في جزيرة العرب، وهم قريش، وتفرغ لتصفية الحساب مع أخبث عدو له

مكراً وكيداً وغدراً وإغراء للأحزاب وهم اليهود، وكانوا متمركزين في خيبر وما وراءها في جهة الشمال، وبينما هو يستعد للخروج إليهم حدثت حادثة أخرى خفيفة، وهي غزوة الغابة.

غزوة الغابة:

وبيان ذلك ان رسول الله - ﷺ - كان قد أرسل لقاح (إبل ذوات لبن) لترعى في جهة الغابة بناحية أحد، وكان معها غلامه رباح والراعي وسلمة بن الأكوع، وكانت مع سلمة فرس لأبي طلحة، فأغار عبد الرحمن بن عيينة الفزاري على الإبل، فقتل الراعي، واستاق الإبل أجمع، فأعطى سلمة فرسه رباحاً ليسرع إلى المدينة، ويخبر بالحادث، وقام هو على أكمة، فاستقبل المدينة، وصاح بأعلى صوته: يا صباحاه، ثلاث مرات، ثم خرج في آثار القوم يرميهم بالنبل ويرتجز:

خذها، أنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع. (هلاك اللئام)

فلم يزل يرميهم ويعقربهم، وإذا رجع إليه منهم فارس جلس في أصل شجرة ورماه، ودخلوا في مضيق جبل فعلاه، وأخذ يرديهم بالحجارة، فلم يزل كذلك حتى تركوا الإبل كلها، ولكنه لم يزل يتبعهم ويرميهم بالحجارة، فلم يزل كذلك حتى تركوا الإبل كلها، لكنه لم يزل يتبعهم ويرميهم حتى ألقوا ثلاثين برداً وثلاثين رمحاً يستخفون منها، فكان يجعل عليها أكواماً من الحجارة ليعرف بها.

وجلسوا في متضايق ثنية، فجلس ابن الأكوع على رأس قرن، فصعد إليه أربعة، فقال: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب منكم رجلاً إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا.

وبعد حين رأى سلمة فوارس رسول الله - ﷺ - يتخللون الشجر، أولهم أخرم، ثم قتادة، ثم المقداد، فجاءوا، والتقى أخرم وعبد الرحمن، فعقر أخرم فرس عبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، فلحقه أبو قتادة، وقتله طعناً وفر الباقون، فطاردهم هؤلاء الفوارس، ومعهم سلمة يعدو على رجليه، ووصلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يسمى بذِي قَرَدَ، وكان قد نزل به العدو ليشرب منه، وهم عطاش، فأجلاهم عنه سلمه برميه، ولحق به رسول الله - ﷺ -والفوارس عشاء، فقال: يا رسول الله، والقوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل أخذت بأعناقهم وسرحهم فقال: يا ابن الأكوع! ملكت فأسجع - أي تلطف - ثم قال: إنهم ليقرون الآن في بني غطفان، وأعطاه سهم الراجل والفارس، وأردفه على العَضْبَاء، وقال: خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجّالَتِنا سَلَمة.

سلمة بن الأكوع ذهب بنفسه وراء أربعين رجلاً يقاتلهم وحده وهم يفرون منه؛ وسلمة يغامر بنفسه نجدة للملهوف ووقوفاً مع المظلوم؛ لأنه يعلم أن نجدة الملهوف من أجل الأعمال عند الله، وأن دفع الضرر عن المسلم عند التمكن واجب شرعي وإنساني، وكأن سلمة بن الأكوع يرسل رسالة إلى أمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسرعوا إلى نجدة المسلمين الذين يجهز عليهم الأعداء في ديارهم متعدين على أموالهم وأعراضهم، يسفكون دماءهم ويتفننون في تعذيبهم والعالم يسمع ويرى، وليس له إلا الشجب والإدانة؛ حتى إن شجبنا وإدانتنا أصبحت على استحياء فتجرأ علينا الأعداء وأخذوا مقدساتنا واحتلوا كثيراً من أراضينا.

وقعت هذه الغزوة قبل خروجه - ﷺ -إلى خيبر بثلاثة أيام، وقد استعمل فيها على المدينة ابن مكتوم، وأعطى اللواء للمقداد.

غزوة خيبر:

✉وفي المحرم سنة سبع من الهجرة خرج رسول الله - ﷺ - إلى خيبر، وجاء من تخلف عن الحديبية ليؤذن له فنادى في الناس أن لا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا يعطى لهم منه شيء، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

✉ثم سلك الجادة المعروفة الموصلة إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريباً اختار طريقاً آخر يوصله إلى خيبر، حتى إذا كان في منتصف الطريق تقريباً اختار طريقاً آخر يوصله إلى خيبر من جهة الشام، ليحول بينهم وبين فرارهم إلى الشام.

✉وبات الليلة الأخيرة قريباً من خيبر، ولم تشعر به اليهود، فلما أصبح صلى الفجر بغلس (ظُلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح)، ثم ركب هو والمسلمون متجهين إلى مساكن خيبر، أما اليهود فقد خرجوا بمَساحِيهِمْ، ومَكاتِلِهِمْ ليعملوا في أرضهم وهم لا يعلمون، فلما رأوا الجيش رجعوا هاربين يقولون: محمد، والله محمد والخميس(الجَيْشَ) فقال النبي - ﷺ - "الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ".

✉وخيبر على بعد ١٧١ كيلومتراً شمالي المدينة وكانت مساكنها منقسمة إلى ثلاثة أشطر: النَطَاةَ ، والكتيبة، والشِّقُّ، فالنطاة ثلاثة حصون: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير، والشق حصنان: حصن أبي، وحِصْنِ النَّزَارِ، والكتيبة ثلاثة حصون: حصن القموص، وحصن الوطيح، وحصن السلالم.

وكانت في خيبر حصون وقلاع أخرى صغيرة لم تكن تبلغ مبلغ هذه الحصون في القوة والمناعة.

فتح النطاة:

✉عسكر رسول الله - ﷺ - شرقي حصون النطاة بعيداً عن مدى النبل، وبدأ القتال بفرض الحصار على حصن ناعم، وكان حصناً منيعاً، رفيعاً صعب المرتقى وكان خط الدفاع الأول لليهود، وفيه بطلهم مَرْحَب الذي كان يعد بألف رجل، فوقعت المراماة بين الفريقين أياماً، ثم بشرهم رسول الله - ﷺ - بالفتح، قال: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله" ، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنى أن يعطاها، فلما أصبح قال: أين علي؟ قالوا: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه فأتى به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم.

✉وكان اليهود قد نقلوا نساءهم وذراريهم إلى حصن الشق ليلاً، وقرروا البروز للقتال في ذلك الصباح، فلما ذهب إليهم علي - رضي الله عنه - وجدهم متجهزين للقتال، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورفضوا، ودعا مرحب إلى المبارزة، وهو يخطر بسيفه ويقول: قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب ،فبرز له عامر بن الأكوع، وهو يقول: قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر ، فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فذهب عامر ليتناول بسيفه ساق اليهودي، وكان سيفه قصيراً، فلما يصل إليه، بل رجع إلى عامر فأصاب ركبته، فمات بسببه فيما بعد، فقال النبي - ﷺ - فيه: إن له لأجرين، إنه لجاهد مجاهد، قل عربي مشى بها - أي بالأرض - مثله.

✉أما مرحب فبرز له علي وهو يرتجز: أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غاباتٍ كَرِيهِ المَنظَرَه، وفِيهِم بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ ، وضرب رأس مرحب فقتله، ثم خرج أخوه ياسر يدعو إلى المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام، وألحقه بأخيه، ثم دار القتال المرير، قتل فيه عدد من سراة اليهود، وانهارت معنوياتهم، فانكشفوا عن مواقفهم، وتبعهم المسلمون حتى دخلوا الحصن بالقوة، وانهزم

اليهود إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصعب وقد غنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الطعام والتمر والسلاح.

✉ثم حاصر المسلمون حصن الصعب تحت قيادة الحباب بن المنذر، ودام الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث دعا رسول الله - ﷺ - بالفتح والغنيمة، ثم ندب المسلمين بالهجوم فهاجموا بشدة، ووقع البراز والقتال، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة اليهود، وافتتح المسلمون الحصن قبل أن تغرب الشمس، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، وكان أكثر الحصون طعاماً وودكاً(دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه)، وأعظمها غناء للمسلمين، وكان المسلمون قبل ذلك في مجاعة شديدة حتى ذبح ناس الحمر، فنهى رسول الله - ﷺ -عن لحومها، وأمر بالقدور فأكفئت، وهي منصوبة على النيران تطبخ فيها تلك اللحوم.

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوفى رَضِيَ اللهُ عنه قال: "أصابَتْنا مجاعةٌ ليالِيَ خَيبَرَ، فلمَّا كان يومُ خَيبَرَ وقَعْنا في الحُمُرِ الأهليَّةِ فانتَحَرْناها، فلمَّا غَلَت بها القُدورُ نادى مُنادي رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنْ أكفِئُوا القُدورَ- ورُبَّما قال- ولا تأكُلوا مِن لُحومِ الحُمُرِ شَيئًا" متفق عليه

✉ولاذ اليهود بقلعة الزبير وتحصنوا فيها، وهي ثالث الحصون وآخرها في شطر النطاة، أما المسلمين ففرضوا عليهم الحصار، وفي اليوم الرابع دل يهودي على جداول ماء كان يستقي منها اليهود فقطعها المسلمون عنهم، فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزموا إلى شطر الشق وتحصنوا بحصن أبى.

📄فتح الشق:

✉وتبعهم المسلمون حتى حاصروهم، فخرجوا مستعدين لأشد القتال، وبرز أحد أبطالهم يطلب المبارزة فقتل، ثم برز آخر فقتل، قتله أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري، فلما قتله أسرع إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه المسلمون، فجرى القتال داخل القلعة ساعة، ثم فر اليهود إلى الحصن الثاني: حصن النزار، وهو آخر الحصنين في هذا الشطر، وغنم المسلمون في حصن أبي أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً.

✉ثم تقدموا وحاصروا حصن النِّزَار، وكان على رأس جبل لا سبيل إليه، وقد تمنع أهله أشد التمنع، وكانوا على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحامه، ولذلك أقاموا فيه مع الذراري والنساء، وقاموا أشد المقاومة، رمياً بالنبل والحجارة، فنصب المسلمون المنجنيق، فوقع في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى شطر الكتيبة دون أن يعانوا شدة تذكر، ووجد المسلمون غنائم فيها أواني من نحاس وفخار، فقال - ﷺ - اغسلوها واطبخوا فيها.

📄فتح الكتيبة:

وتقدم المسلمون إلى حصن القَمُوص، أول حصون الكتيبة، فحاصروه أربعة عشر يوماً أو عشرين يوما، ثم يقال: إن اليهود طلبوا الأمان. ويقال: إن المسلمين فتحوا الحصن عنوة، وفر اليهود إلى الحصنين الباقيين: الوطيح والسلالم، فلما سار إليهما المسلمون ليحاصروهما طلب اليهود الأمان على أن يخرجوا من خيبر وأراضيها بنسائهم وذراريهم، فعاهدهم على ذلك، وسمح لهم بأن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم، إلا الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة - أي الخيل والسلاح، وتبرؤ منهم الذمة إن كتموا شيئاً، ثم سلموا الحصون الثلاثة أو الحصنين، فغنم المسلمون مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية، وصحفاً من التوراة أعطوها لمن طلبها.

وغدر بالعهد كنانة بن أبي الحقيق وأخوه، فغيبا كثيراً من الذهب والفضة والجواهر، فبرئت منهما الذمة، وقتلاً لغدرتهما، وكانت صفية بنت حيي بن أخطب تحت كنانة، فجعلت في السبى.

☜قتلى الفريقين: وبلغ عدد القتلى من اليهود ثلاثة وتسعين قتيلاً، أما المسلمون فقيل: ١٥، وقيل: ١٦، وقيل:18

قدوم مهاجري الحبشة وأبي هريرة وأبَانُ بن سعيدِ:

ولما رجع مهاجرو الحبشة مع عمرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، حامل كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى النجاشي، اتجه طائفة منهم على خيبر، وهو ستة عشر رجلاً فيهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري - رضي الله عنهم أجمعين - فوافوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين فتح خيبر، وقبل أن يقسمها، فقبل - صلى الله عليه وسلم - جعفراً وقال: "والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر"، ولما قسم خيبر أعطاهم من الغنيمة، وأما بقية مهاجري الحبشة فذهبوا مع نسائهم وذراريهم إلى المدينة رأساً.

ووافاه أيضاً بخيبر بعد أن تم الفتح أبو هريرة - رضي الله عنه - وكان قد جاء إلى المدينة بعد خروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى خيبر، فأسلم، ثم استأذن وخرج إلى خيبر، فأعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غنيمة خيبر.

ووافاه بعد الفتح أيضاً أبان بن سعيد، وكان قد خرج بسرية إلى نجد، فلما قضى مهمته جاء إلى خيبر، ولم يعط له ولأصحابه من غنيمة خيبر.

قسمة خيبر:

ولما حصل اليهود على الأمان جاءوا باقتراح جديد قبل أن يتم جلاؤهم، قالوا: يا محمد! دعنا في هذه الأرض، نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، وتعطينا نصف ما يخرج منها من الثمر والزرع، فرضي بذلك على أن يجليهم منها متى شاء، فبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين سلكوا طريق الشر والخبث.

وقسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيبر على ستة وثلاثين سهماً، وكل سهم مجموع مائة سهم، فعزل منها النصف، وهو ثمانية عشر سهماً لنوائب المسلمين، وقسم النصف الباقي، وهو أيضاً ثمانية عشر سهماً، على الغزاة، فأعطى للراجل سهماً، وللفارس ثلاثة أسهم، سهماً له وسهمين

لفرسه، وكان الفوارس مائتين، فصارت لهم ستة أسهم، والرجالة ألفاً ومائتين فصار لهم اثنا عشر سهماً.

✉وكانت خيبر غنيمة بالتمر والطعام، قالت عائشة - رضي الله عنها لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم (التي كانوا منحوهم من ثمارهم) من النخيل بعدما رجعوا من خيبر إلى المدينة.

🗐شاة مسمومة:

✉وبعدما عاد الهدوء، وذهب الخوف عاد اليهود إلى خبثهم، وتآمروا على قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأهدوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاة مسمومة بواسطة امرأةُ سَلَّامِ بنِ مِشكَمٍ (زَينَبُ بِنتُ الحارِثِ): أحد كبرائهم، وقد علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعجبه الذراع، فأكثرت السم فيه، وتناول منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولاكها، ثم لفظها وقال: إنها شاة مسمومة، وسأل المرأة واليهود فاعترفوا بجريمتهم، قالوا: قلنا: إن كان ملكاً نستريح منه، وإن كان نبياً لا يضره، فعفا عنهم وعن المرأة، ثم إن بشر بن البراء بن معرور مات من أجل هذا السم فأمر بقتل المرأة قصاصاً.

لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اجْمَعُوا إلَيَّ مَن كانَ هَاهُنَا مِن يَهُودَ. فَجُمِعُوا له، فَقَالَ: إنِّي سَائِلُكُمْ عن شَيءٍ؛ فَهلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عنْه؟ فَقالوا: نَعَمْ. قَالَ لهمُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن أبُوكُمْ؟ قالوا: فُلَانٌ. فَقَالَ: كَذَبْتُمْ، بَلْ أبُوكُمْ فُلَانٌ. قالوا: صَدَقْتَ. قَالَ: فَهلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عن شَيءٍ إنْ سَأَلْتُ عنْه؟ فَقالوا: نَعَمْ يا أبَا القَاسِمِ، وإنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كما عَرَفْتَهُ في أبِينَا. فَقَالَ لهمْ: مَن أهْلُ النَّارِ؟ قالوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا. فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اخْسَؤوا فِيهَا، واللَّهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أبَدًا. ثُمَّ قَالَ: هلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عن شَيءٍ إنْ سَأَلْتُكُمْ عنْه؟ فَقالوا: نَعَمْ يا أبَا القَاسِمِ. قَالَ: هلْ جَعَلْتُمْ في هذِه الشَّاةِ سُمًّا؟ قالوا: نَعَمْ. قَالَ: ما حَمَلَكُمْ علَى ذلكَ؟ قالوا: أرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وإنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ. صحيح بخاري

وقال النووي: "كأنه بقي للسُّمِّ علامة وأثر من سواد أو غيره... وفيه بيان عصمته صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم، كما قال الله: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة:67]، وهي معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سلامته من السُّم المهلك لغيره، وفي إعلام الله تعالى له بأنها مسمومة، وكلام عضو منه له، فقد جاء في غير مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الذِّرَاعَ تُخبِرُني أنها مسمومة"، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي يقول في مرضه الذي مات فيه: "يا عائشة، ما أزال أجد أَلَمَ الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهُرِي من ذلك السُّم".

يقول الزرقاني في "شرح المواهب اللدنية": "ومن المعجزة أنه لم يؤثر فيه في وقته، لأنهم قالوا: "إن كان نبياً لم يضره، وإن كان مَلِكاً استرحنا منه"، فلما لم يُؤثِّر فيه تيقَّنوا نبوته حتى قيل: إن اليهودية أسلمت، ثم نقض عليه بعد ثلاث سنوات لإكرامه بالشهادة.

✉ومما سبق يُعْلَمُ أن الحُمَّى التي أصابته صلى الله عليه وسلم قبل موته كانت من أثر السُّم الذي تناوله بخيبر، فلم يضره ذلك السُّم طول حياته، ولم يؤثر عليه في ذلك الوقت -غير ما أثر بلَهَوَاتِهِ وغير ما كان يعاوده منه في أوقات- فقاد الجيوش بعد ذلك ودخل المعارك الكبرى وانتصر فيها، وفاوض الأعداء، واستقبل الوفود، ومارس حياته العادية، حتى وافاه الأجل المحتوم بصورة طبيعية، فأحدث الله تعالى ضرر ذلك السُّم في النبي صلى الله عليه وسلم فتوفي بسببه، كما قال صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه: "مَا زِلْتُ أَجِدُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِى أَكَلْت بِخَيْبَر فهذا أَوَان قَطَعَتْ أَبْهَرِى". فجمع الله لنبيِّهِ بين النبوة والشهادة؛ مبالغةً في الترفيع والكرامة، وعلو المنزلة عند الله تعالى، ولينال مَقَام الشهداء مع مَقَام النبوة؛ ولذلك كان ابن مسعود والزهريُّ وغيرهما يرون أنه صلى الله عليه وسلم مات شهيداً من ذلك السُّم، والله أعلم.

🗐استسلام أهل فَدَك:

فدك قرية في شرق خيبر على بعد يومين، تعرف اليوم ب "حائط" وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أرسل مُحَيِّصَةُ بنُ مَسْعُود إلى يهود فدك بعد وصوله على خيبر، ليدعوهم إلى

الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما سمعوا بفتح خيبر داخلهم الرعب، وطلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت أرض فدك خالصة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينفق منها على نفسه، ويعول صغير بني هاشم ويزوج أيمهم.

وادي القُرَى:

وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد خيبر إلى وادي القرى، ودعا أهلها - وهم يهود - إلى الإسلام، فلم يسلموا ولم يستسلموا، وخرجوا للقتال، وبرز منهم رجل فقتله الزبير بن العوام، ثم آخر فقتله، ثم ثالث فقتله علي، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل، دعا البقية إلى الإسلام، وكلما صلى صلاة دعاهم إلى الإسلام حتى أمسوا، ثم غدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى انهزموا، وغنم المسلمون مغانم كثيرة، ثم طلبوا أن يعامل بهم معاملة أهل خيبر، فقبل ذلك منهم.

مصالحة أهل تيماء:

ووصل إلى يهود تيماء أخبار خيبر وفدك ووادي القرى، فصالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم آمنين.

زواجه - صلى الله عليه وسلم - وبناؤه بصفية:

ولما جعلت صفية بنت حيي بن أخطب في السبى أخذها دحية بن خليفة الكلبي بإذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال الصحابة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، " إنها لا تصلح إلا لك، إنها سيدة قريظة والنضير، فدعا بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وأسلمها إلى بعض النساء.

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا ياسر بن أخطب حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادَثه، ثم رجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أطيعوني؛ فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوه. فانطلق أخوه حيي بن أخطب -وهو يومئذٍ سيّد اليهود، وهما من بني النضير- فجلس إلى رسول الله وسمع منه، ثم رجع إلى قومه، وكان فيهم

مطاعًا، فقال: أتيتُ من عند رجلٍ والله لا أزال له عدوًّا أبدًا. فقال له أخوه أبو ياسر: يابن أمِّ، أطعني في هذا الأمر واعصني فيما شئتَ بعده، لا تهلك. قال: لا والله لا أطيعك أبدًا. واستحوذ عليه الشيطان، واتبعه قومه على رأيه.

وكانت صفية -رضي الله عنها- قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن أبي الحقيق أن قمرًا وقع حجرها، فعرضتْ رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلاَّ أنك تمنّين ملك الحجاز محمدًا، فلطم وجهها لطمةً خَضِر عينها منها، فأُتِي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه، فسألها ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر. وتزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم ولم تبلغ سبع عشرة سنة.

وكانت -رضي الله عنها- عروسًا حديثة عهد بالدخول، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يذهب بها إلى رحلة، فمرَّ بها بلال وسط القتلى، فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "أَذَهَبَتِ الرَّحْمَةُ مِنْكَ يَا بِلالُ؟".

"قَدِمْنَا خَيْبَرَ فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عليه الحِصْنَ، ذُكِرَ له جَمَالُ صَفِيَّةَ بنْتِ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ، وقدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وكَانَتْ عَرُوسًا، فَاصْطَفَاهَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِنَفْسِهِ". صحيح بخاري

فلما تم له فتح خيبر ووادي القرى، وأطاع له أهل فدك وتيماء، أخذ في عودته إلى المدينة، حتى إذا كان بسد الصبهاء حلت صفية فزفت إليه - صلى الله عليه وسلم -، فأصبح عروساً بها، وأولم عليها بحيس من التمر والأقط والسمن، وأقام ثلاثة أيام يبني بها.

" ثُمَّ خَرَجْنَا إلى المَدِينَةِ، فَرَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحَوِّي لَهَا ورَاءَهُ بعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، وتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا علَى رُكْبَتِهِ حتَّى تَرْكَبَ". صحيح بخاري

ثم سار حتى قدم المدينة في أواخر شهر صفر أو في شهر ربيع الأول من سنة 7 هـ.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حليمًا بالسيدة صفيَّة -رضي الله عنها- محبًّا ومُكرمًا لها؛ "بلغَ صفيَّةَ أنَّ حفصةَ قالت بنتُ يهوديٍّ فبكت فدخلَ عليها النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وهيَ تبكي فقالَ ما يبكيكِ قالتْ قالتْ لي حفصةُ إنِّي بنتُ يهوديٍّ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وإنَّكِ لابنةُ نَبِيٍّ وإنَّ عمَّكِ لنبيٌّ وإنَّكِ لتحتَ نبيٍّ ففيمَ تفخرُ عليكِ ثمَّ قالَ اتَّقي اللَّهَ يا حفصةُ". صحيح الترمذي

✉بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظلَّت السيدة صفيَّة -رضي الله عنها- متعهِّدة له ولسُنَّته، وقد كانت -رضي الله عنها- حليمة عاقلة فاضلة؛ حيث رُوِيَ أن جاريةً لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفيَّة تحبُّ السبت وتَصِلُ اليهود. فبعث إليها عمر فسألها فقالت: "أمَّا السبت فإنِّي لم أحبّه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأمَّا اليهود فإن لي فيهم رحمًا وأنا أَصِلُها". ثم قالت للجارية: "ما حملك على ما صنعتِ؟" قالت: الشيطانُ. قالت: "اذهبي فأنت حُرَّة".

✉ولقد عايشت رضي الله عنها عهد الخلفاء الراشدين، حتى أدركت زمن معاوية رضي الله عنه، ثم كان موعدها مع الرفيق الأعلى سنة خمسين للهجرة، لتختم حياة قضتها في رحاب العبادة، دون أن تنسى معاني الأخوة والمحبة التي انعقدت بينها وبين رفيقاتها على الدرب، موصيةً بألف دينار لعائشة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، وقد دفنت بالبقيع. فرضي الله عنها وعن سائر أمهات المؤمنين.

غزوة ذات الرقاع:

✉ولما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خيبر، واطمأن بالمدينة سمع بتجمع البدو من بني أَنْمَارٍ وثعلبة و مُحَارب، فاستعمل على المدينة عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، وقصد في نحو سبعمائة من الصحابة موضعاً يقال له نخل، على بعد يومين من المدينة، فلقي جمعاً من غطفان، فتقارب الفريقان، وأخاف بعضهم بعضاً، ولم يدر القتال، وأقيمت الصلاة، فصلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت له أربع وللقوم ركعتان، وهي صلاة الخوف، ولها صور أخرى مروية في الأحاديث.

ثم ألقى الله الرعب في قلب العدو فتفرق جمعه، وعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة.

✉وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع، لأن أقدام المسلمين نقبت لأجل المشي، فلفوا عليها الخرق، وهي الرقاع، وقيل: لأن أراضيها وجبالها ذات ألوان مختلفة كأنها رقاع، قيل: بل هي اسم لمكان الغزوة.

من يمنعك مني؟

✉ومن أروع ما وقع في هذه الغزوة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزل ذات يوم تحت شجرة ظليلة، فعلق بها سيفه ونام، وتفرق الناس تحت الأشجار وناموا، فجاء رجل من المشركين،

فاخترط سيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو نائم، فاستيقظ وهو في يده صلتا، فقال: أتخافني؟ قال: لا، قال: فمن يمنعك مني؟ قل: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم، ولكنه أعطى العهد أنه لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فذهب إلى قومه، وقال: جئتكم من عند خير الناس، وعامة أهل المغازي يقولون: إن هذه الغزوة وقعت في السنة الرابعة من الهجرة، والصحيح أنها في السنة السابعة بعد خيبر، لأن أبا هريرة وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - كانا في هذه الغزوة، وهما إنما جاءا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أول مرة بعد فتح خيبر. كما تقدم

وقد أرسلت قبل هذه الغزوة وبعدها عدة سرايا لتأمين الطرق وتأديب المعتدين وتفريق المجتمعين، نطوى ذكرها حتى لا يطول الكلام.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷ ابن هشام: السيرة النبوية.

❸ ابن كثير: السيرة النبوية.

❹ السيدة صفية: راغب السرجاني.